"الملل" رؤية فلسفية

د. حسن يوسف طه
أكاديمية الفنون – القاهرة

الملل جوهر النسيج الإنساني :

شاءت الأقدار وشاء الله أن يكون الجوهر الإنسانى عبارة عن تربة خصبة قادرة على الإنتاج فى كل آن.. إنها تربة لإنتاج السأم أو الملل.. والإنسان الحقيقى هو الإنسان الذى يعانى من تجربة الملل فهو يلفه من جميع الجهات بينما الإنسان المزيف فإن الملل (السأم) إذا اعتراه ما يلبث أن ينتهى أو هو لا يكاد يشعر بوجوده... والملل شىء إيجابى فى ظروف كثيرة فعن طريق ذلك الملل سوف يكتشف الإنسان ذاته وإمكاناته ويكتشف الوجود من حوله وكل الأشياء وقد يكون الملل نوعا من الدمار والتحطيم ، إنه حالة إنسانية تحمل الإيجاب والسلب والإنسان الحقيقى هو القادر على التمييز بينهما ... يقول (ليوبردى) عن الملل: "إن الملال هو بمعنى من المعانى أجل العواطف الإنسانية . لا أقول هذا لأنى أؤمن بما استخلصه كثير من الفلاسفة فى تحليلهم لهذه العاطفة من نتائج ، ولكن عدم إمكان الرضى عن أى شىء أرضى ، بلى ولا عن الأرض كلها إن صح هذا التعبير ، وتأمل سعه المكان اللانهائية ، وعدد العوالم الهائلة وضخامتها ورؤية كل شىء ضئيلا كل الضآلة بإزاء سعة النفس الخاصة ، وتخيل عدد العوالم لا متناهيا والكون لانهائيا ، ثم الشعور بان النفس ونزوعها لازال أكبر من هذا الكون المتخيل ، واتهام الأشياء دائما بالنقص والعدم والشعور بالعوز والخلاء وبالتالى بالملال ، كل هذا يبدو لى أعظم دليل على العظمة والنبل فى الطبيعة الإنسانية.. ".[1]

الملل شعور "ميتافيزيقي" داخل الإنسان

الملل شعور بشرى سوى ، فقد عرف البشر فـــى كـــل زمـــان ومكـــان ، أحاسيس الملل، والضيق ، والضجر،.. والسأم قـــد تصطحبـــه ظروف أو ملابسات يظنها الناظر فيها إنها علته وهى لا يمكن أن تكـــون العلة الحقيقية لتفسير السأم ، بل هى مجرد عوامل مســـاعدة أو ظـــروف ملائمة لنمو الشعور بالملل ، فى هذه البيئة أو تلك ، ولدى هذا الشـــعب أو ذاك ، وأما "السأم " نفسه فهو شعور ميتافيزيقى يقترن بديمومة الحيـــاة ، و لا كاد ينفصل عن إحساسنا بالزمان إننا حين نتحدث عن الســـأم فإننـــا لا نتحدث عن شىء دخيل على الحياة البشرية ، بل عن عنصر هـــام مـــن مقومات وجودنا البشرى ، بوصفه وجودا متناهيا متناقضا يتذبذب دائمـــا بين الامتلاء والخواء، بين اللذة والألم ، بين السعادة والشقاء ! وحين يسأم الإنسان فإنه لابد من أن يشعر بالحاجة إلى قتل الوقت ، ومن هنـــا فقـــد اضطر الإنسان إلى أن يبتدع حيلا ينفض بها عن نفسه غبار الملل بـــأن ينفق من وقته دون حساب ! وهكذا تفنن البشر فى خلق وسائل التســـلية ، ولكنهم سرعان ما تحققوا من أن التسلية نفسها لابد بدورها فى أن تولـــد السأم ، أعنى أن المرء لا يسأم من السأم فحسب ، بل هو يسأم من التسلية أيضا... ولو أننا تفهمنا الطابع الحقيقى لشعورنا بالديمومة ، لأدركنـــا أن "السأم" هو السم الباطن الذى ينخر كالسوسة فى قلب كل موجود بشـــرى ! أجل ؛ فإن الموجود الزمانى الذى يظل طوال محياه يتحسر على المـــاضى ويتلهف على المستقبل ، دون أن يستطيع يوما الإمساك بزمام الحـــاضر ، إنما هو فى الوقت نفسه الحيوان الملول الذى يضيـــق ذرعـــا بذكريـــات الماضى ، ويشعر بالقلق لفرط تطلعه إلى المستقبل ، ويحـــس بـــالضجر لانحباسه فى الحاضر ... [٢] إن الإنسان كائن يعيش متأرجحا بين قطبى

الألم والملل فهو مثل بندول الساعة لا يعرف الاستقرار والإنسان محكوم بالزمان سواء الماضى منه أو الحاضر أو المستقل.. وهنا نجد الإنسان متألما من الماضى ويسأم من المستقبل بينما الحاضر ضجر..

والألم من الماضى لأنه كان له فيه الكثير ولكن رحل وليس له من معيد ولذا فهو يشعر بالشقاء والألم لما قد ذهب بلا عودة.. الماضى شيء يفر من الإنسان وليس له القدرة على الإمساك به..

والمستقبل شيء متكاثف كثافة شديدة ومتغيم وفاقد القيمة والمعيارية ولذلك فهو جاثم على صدر الإنسان فى اللحظة الآنية.. إن تكاثف المستقبل وثقله يجعل الفرد فى اللحظة الراهنة (الحاضر) يشعر بالاختناق والرفض والضيق أو ما يمكن تسميته بالضجر.. فالأشياء ثقيلة على نفسه وليس له القدرة على إزاحتها عن كاهله.. وإذا أردنا توضيح ذلك الأمر لقلنا إن الماضى بالنسبة للإنسان يمثل (ألم العجز) وإن اللحظة الراهنة هى (ضجر الحاضر) وأن الليس بعد هو (ملل المستقبل).. فالماضى (ألم العجز).. فكلا ما قد فعل ومل قد حدث ليس له معنى ولا مغزى بل يتمنى أن يزال من حياته نهائيا .. ولكنه يشعر بالعجز تجاه ذلك الماضى..

مثال : المجرم.. حياته من البذاية فاقدة القيمة والمعنى ومن ثم يقع تحت طائلة القانون فهذا الشخص يشعر بالألم ولكنه (ألم عاجز) وليس فى مقداره أن يمحو ذلك الماضى اللعين.. فهو عاجز أمام تاريخه الذى صنعه بيده.

والحاضر (ضجر) الشعور بالضجر من الحاضر.. والضجر سببه (ألم العجز) الماضي و (عجز الآتى) أو عجز الليس بعد- المستقبل- من ثم فهو يشعر بالضجر. وهذا الشخص شخص مفكك (مفتت)..

والمستقبل.. غير محدد المعالم وفاقد الهوية ولذا فهو متكاثف بشكل رديء ليصبح ثقلا وعبئا على الإنسان ومن ثم يكون متغيما وغير محدث.. وهذا الشخص هو الذى توقفت إمكانياته.. وهو الذى لا يفعل أى شيء ولا يتأثر بأى شيء.. إنه الشعور المبهم الغير محدد المعالم أو الأسباب إن الغموض يلفه من كل جوانبه . إنه الشعور الميتافيزيقى بالخواء . ومن ثم فهو شخص غير قادر على الحياة أو مواجهة الحياة...

ومهما يكن الأمر ألا يمكن لنا أن نحدد بعضا من أساليب الملل ؟ فيما يلى سنعرض لبعض تلك الأسباب ولكن ليس بالضرورة أن تكون هى الأسباب الحقيقية ..

أسباب الملل:

١- نحن نسأم لأننا نواجه الزمان:

يود الإنسان أن يصبح الزمان ممتلئا لكن يده قصيرة إزاء الزمان ليس أمامه سوى اللحظة الراهنة.. فالماضى رحل ومات والمستقبل غائب ومتغيم فهو إذن محصور بين عدمين ... ويرى باشالار: ليس للزمن من واقع إلا فى اللحظة . وبعبارة أخرى فالزمن هو واقع محصور فى اللحظة ومعلق بين عدمين . يمكن بدون شك للزمن من أن يحيا من جديد إلا أن عليه أن يموت قبل ذلك . ولا يستطيع أن ينتقل بذاته من لحظة إلى أخرى ليجعل منها ديمومة.. فاللحظة هى بعد الوحدة.. إنها الوحدة فى قيمتها الميتافيزيقية الخالصة. ولكن نوعا من الوحدة أكثر وجدانية يؤكد الطابع

المأساوى لعزلة اللحظة : إن الزمن المقصور على اللحظة بواسطة نوع من العنف الخلاق لا يعزلنا فقط عن الآخرين بل حتى عن أنفسنا لأنه يقطع علاقتنا بماضينا العزيز ... [٣] هنا يصبح الملل هو سيد الموقف لأن العدم يحيط بالإنسان ومن هنا يشعر الفرد بالعبثية واللاجدوى والسأم من كل شيء.. وغالبا ما ننسى سبب الملل ولكن الحقيقة نحن نمل ونسأم من خواء الزمان ولاجدوى الأشياء فى الوجود.. ولعل هذا هو ما عناه بول فاليرى Valery حينما وصف السأم فى كتابه "الروح والرقص". فقال: هذا المرض الذى هو مرض الأمراض ، وهذا السم الذى هو سم السموم ، هذا السم المضاد للطبيعة كلها ، إنما هو ما نسميه بالسأم من الحياة ، إنه ليس بالملل العارض . ملل التعب والكلال أو الملل الذى يمكن رؤية أصل جرثومته أو الوقوف على حدوده ، بل هو السأم الكامل ، السأم الخالص ، الذى لا يرجع منشؤه إلى سوء الحظ أو المرض أو الضعف ويرضى بتأمل أحد ما يمكن من الظروف ، وأخيرا هو هذا السأم الذى ليس له مادة سوى الحياة نفسها ، وليس له سبب بعد ذلك سوى وضوح بصيرة الحى ، هذا السأم المطلق ليس فى ذاته إلا الحياة عارية تماما ، إذا نظرت إلى نفسها بوضوح... [٤]

والواقع إننا مهما حاولنا أن نجعل حياتنا مليئة خصبة ، فلابد من أن تجيء علينا لحظات نستشعر فيها العوز والخلاء ، وبالتالى السأم والملال . وإذا كان من شأن الفعل الذى يتحقق فى "الآن" إن ينسينا الزمان ، فإن من شأن الملل الذى يقترن بالقلق أن يزيد من وحدة شعورنا بالزمان . ومعنى هذا أننا- كما لاحظ شوبنهور- قلما نشعر بالزمان فى لحظات اللهو والسرور ، وإنما نحن نشعر به على وجه الخصوص فى لحظات الضجر والألم والملل . وحينما يستبد الملل بالنفس البشرية ، فهنالك يشعر

الإنسان بالخلاء ، والخواء، والضجر ، والتبرم ، وضيق الصدر ، وعدم الاكتراث ! وليس أشق على الإنسان من أن يصارع الملل ، فإن الصراع ضد الملل هو صراع ضد الزمان نفسه ، فضلا عن أنه كثيرا ما يكون الملل غير ذى موضوع . ألا يشعر المرء أحيانا بسأم غريب لا يعرف مصدره ، ولا يقوى على صده ، فلا يجد بداً من أن يستسلم لذلك العذاب النفسى الذى لا موضوع له سوى الحياة نفسها، وإذن أفلا يحق لنا أن نقول إن الزمان بما فيه من صيرورة ورتابة وتكرار ، هو الذى يجعل من السأم جزءا لا يتجزأ من صميم وجودنا ؟.. [٥] إننا نؤكدها إنه ليس التكرار ولا الرتابة فقط هما سبب الشعور بالملل بل يضاف إليهما الشعور الأليم تجاه زمان منفلت من بين أصابعنا لا نملك منه ماضى ولا مستقبل كل ما نشهده هو اللحظة الحاضرة المتأهبة لأن تدفن فى العدمية... إننا لا نشعر إلا بالحاضر والحاضر فقط . إن اللحظة المنقضية هى الموت نفسه بما حوى من عوالم زالت وسموات أمحت . والمجهول المخيف نفسه ينطوى فى نفس ظلمات المستقبل على اللحظة التى تقترب منا وعلى العوالم والسموات التى لم تنشأ بعد.. [٦]

٣- البحث عن "الليس بعد" (Not - Yet)

نحن نسأم لأننا نبحث عن "الليس بعد " دوما.. والليس بعد مجهول لم تتحدد معالمه وكأن الإنسان مدفوعا دفعا إلى الأمام لمواجهة ذلك المجهول .. وتتلخص هذه المقولة على المستوى الإنسانى فى هذه الصيغة إننا لم نكن أو "لم نوجد بعد " ولذلك " فسوف نكون أو نوجد " كما تتمثل على المستوى الطبيعى فى أن العالم المادى " لم يكتمل بعد ".. والإنسان هو الكائن الوحيد المتطلع دوما إلى القادم أو المتطلع دوما إلى الأمام فرغباته لا تنتهى فتحقيق رغبة ما فى الآن تجعله يفر منها للبحث

عن تحقيق رغبة أخرى فى المستقبل تحقيق رغبات فى الليس بعد أو القادم.. يقول شوبنهور: إن ما نسميه بالسعى وراء السعادة فما هو إلا جرى غير معقول وراء الأوهام. فلن نصل أبدا إلى الهدف الذى نسعى إليه ، إذ أن تحقيق أية رغبة إن هو إلا عبور إلى رغبة جديدة . وكل نجاح يترك فى أعماقنا شعورا مؤلما من السأم ، أو قل فراغا مقيما يتطلب حافزا لمزيد من النجاح . وهكذا يصبح وجودنا كالخطار "البندول" يتأرجح باستمرار بين ألم الرغبة وفراغ الإشباع . وليس أملنا فى السعادة إلا حلما . ومن المعروف جيدا أن أحب شىء إلى نفوسنا هو الحصول على ما هوليس فى حوزتنا (الليس بعد) . وهكذا يظل الهدف بعيدا عن متناول أيدينا ..[٧] هنا يظهر الملل بصورة جلية حيث تكتشف الذات خواء الوجود وتكتشف عدم امتلائها فكل ما تحققه وكل ما تمتلكه ما يلبث أن يفقد معناه وتبدأ الذات مرة أخرى رحلة اللهاث عن رغبات جديدة .. إن الذات تسأم عندما تجد أنها لم تعد ذا "كثافة " فى الوجود ذا "ثقل" معين فى الوجود فهى تشعر أنها معدومة الثقل ومعدومة الكثافة بمعنى آخر تشر الذات غير محددة المعالم وبلا معنية الوجود بأكمله هنا تتشح الذات بالملل..

يقول شوبنهور : فإذا لم تجد الإرادة موضوعا تتطلع إليه أى أنها قد حققت رغباتها جميعا ، وهذا قلما يحدث – فإنها تشعر بفراغ هائل ، وتعنى ما نسميه بالملل (Ennui) فالحياة تتأرجح إذن كالبندول يمينا وشمالا من الألم إلى الملل وهما العنصران اللذان تتألف منهما جملة . ولما كان الإنسان هو أرقى الكائنات جميعا ، كانت رغباته وحاجاته لا تنقطع ، وبالتالى كانت حياته مجهودا مستمرا وكفاحا متصلا لإشباع هذه الحاجات . ولكنه لا يستطيع أن يبلغ كافه أهدافه جميعا لما يعترضه من عقبات وصعاب ، فهو فى آلام متصلة وعذابات مستمرة ، فإن بلغ منها ما يريد ،

ولم يجد أمامه ما يحققه ، استشعر الملل وهو أشد وطأة من الآلام مؤتلفة ومجتمعة . ومما يزيد فى مرارة الحياة أن الإنسان يعلم أنه منهزم فى نهاية الأمر وبرغم ذلك فإن الذى يدفع الناس إلى احتمال الصراع مع الحياة بكل ما فيها من عذاب وقلق ليس هو حب الحياة ، بل الأكثر أن يكون الدافع هو الخوف من الموت الذى يختبئ فى مكان ما ليعلن ظهوره فى أية لحظة.. [٨] الملل هنا شعور إنسانى أصيل وعن طريق الملل يستشعر الإنسان حقيقة وجوده وفراغ حاضره وتطلعه إلى ما ليس بعد وفى لحظة من لحظات الملل يكتشف أن العدم يطارده سواء من ماضيه أو حاضره أو مستقبله ومن هنا يزداد الملل مللا..

٣- السقوط فى عالم الزيف

عالم الزيف أو الوجود الزائف هو الوجود الفاقد للوعى ، الوعى بجوهر الإنسان إنه يتمعن فى الاندماج السطحى مع الحشد أو مع الآخرين ومن ثم يتغرب الإنسان عن ذاته الحقة.. إن مجتمع الحشد Mass Society مجتمع مقيئ للذات.. ولذلك وجدنا أبو الوجودية كيركجارد يصف عالم الحشد بصفات لا تدل إلا على العفن.. فهو يرى أن الجمهور قوة حقيرة.. إنه صورة كريهة ومبتذلة من صور التعطش للدماء ، ليس على طريقة الحيوانات المفترسة ، ولكن على طريقة الحشرات الطفيلية التى تمتص دماء الإنسان ، وتلك فى نظره تمثل أشد أنواع الاستبداد إثارة للتقزز والاشمئزاز.. [٩] ويضيف كيركجارد.. إن الحشد هو الباطل عينه لأنه يحيل الفرد إلى شخص غير مسئول.. إنه يضعف إحساسه بالمسئولية.. إنه يحوله إلى مجرد شيء ضئيل.. [١٠] هذا التحول الذى يعترى الإنسان يجعله فى لحظة يعود لذاته من أجل تأملها فى تلك اللحظة يعترى الإنسان الملل فقد أدركت الذات "لا جدوى" كل ما هو محيط بها

والملل هنا مزودج لأنه ملل من داخل الذات لذاتها وملل إلى الخارج من الذات إلى كل ما هو محيط بها..

دكتاتورية الزيف :

يرى هيدجر إن الآخر أو السقوط وسط الآخرين يعد بمثابة الوجود الهلامى (اللا تحديدى) بالنسبة للإنسان.. إن هذا الوجود وهذا السقوط نوعا من الغواية Temptation من أجل التخلص من المسئولية الخاصة لحساب مسئولية الجمع ويصبح الفرد مجرد رأس فى قطيع البشر . لقد أصبح الإنسان جزءا من الحشد المجهول وبالتالى فقد التفرد والتميز ونسى إمكانيته الأصيلة .. هنا يصبح مجتمع الحشد بمثابة دكتاتورية ضاغطة على الفرد.. إنها دكتاتورية لأنها تخضع الجميع لأسلوب واحد من الحياة.. بمعنى آخر لقد تقولب الإنسان وأصبح بمثابة نسخة من الآخرين.. (١١)

ويشرح هيدجر موضحا تلك الدكتاتورية الزائفة المقيتة بقوله : نحن نفعل ما يملى علينا ونحصل على سعادتنا كما يستمتعون ، نحن نقرأ ونرى ونمشى ونصدر الأحكام كل ذلك نفعله مثل ما يفعلون. نحن نتضاءل أمام القداس العظيم مثلما يفعلون.. إن الناس الذين هم بلا تحديد.. يفرضون علينا نمطا واحدا معينا من الحياة اليومية.. إنها دكتاتورية الزيف.. (١٢) وهذه الدكتاتورية الزائفة الموجهة من الحشد أو من مجتمع القطيع ما تلبث أن تشعر الإنسان بنوع من الملل والسأم ، إنه يشعر بالاختناق ويحاول الخروج والبحث عن النجاة ولكنه يفشل فى ذلك ومن ثم يقع فريسة للملل... إن مجتمع الـ (هم) على حد تعبير هيدجر يجعل الإنسان يشعر بالقرف والضجر ويصاب بالتقيؤ النفسى..

ولقد اختار هيدجر مصطلح "هم" بعناية لأن هذه الكلمة شائعة على ألسنتنا دائما : "فهم سيرسلون رجلا إلى القمر هذا العام" ، و"هم لا يخوضون قط فى القضايا الحقيقية". وكلمة "هم" يمكن أن تعنى كل شخص أو أى شخص أو لا أحد ! إن كلمة "هم" تعنى الآخرين، لكنهم ، آخرون غير محددين ، وإن كانوا مع ذلك يسيطرون على حياتنا . . . [١٣]

ويستخدم كارل باسيرز تعبير وجود- الجميع - Mass Existence أو "الجمع Mass" للدلالة على سيطرة الدهماء غير المفكرين على الحياة وعلى المعايير . ويرى إن مثل هذا الخطر قد انتشر بدرجة شديدة ، فى ظروف المعيشة المجاورة للمدينة الصناعية والحضرية.. [١٤] وفى اللحظة التى يدرك فيها الفرد أنه لم يعد قادر على الوجود بشكل حقيقى وبأن ذاته الحقيقية قد تلاشت فى مجتمع "الهم" ومجتمع "الجميع" هنا يصاب الإنسان بدوار الملل ويتمنى من صميم قلبه لو أنه فقد الحياة أو مات..

محاولة للقبض على جوهر الملل :

إذا حاولنا أن نقوم بتحديد وتوضيح وتعريف الملل فإننا سنصاب بخيبة أمل وذلك لأن تحديد المفهوم أمر ليس باليسير ، فليس بمقدورنا أن نعطى التعريف المحدود والدقيق لمعنى "الملل" إذ أنها كلمة ذات وشائج كثيرة ، فالملل حالة وجدانية إنسانية كما سبق وأشرنا ولذا فصبها فى قالب محدد المعالم أمر صعب جدا ولكننا سوف نحاول أن نشرح هذه الظاهرة (الملل) وفى هذا التشريح سوف ينبثق لنا معنى ومغزى الملل ..

أهم سمات الملل : (أهم مظاهر الملل)

أولا: "الملل" هو فقد الذات لعلاقاتها الحميمية:

قد نتساءل من هو الإنسان الذى يشعر بالملل ؟ .. الإنسان الذى يشعر بالملل هو إنسان "الإمكانات" فعندما يصبح الفرد حزمة من الإمكانات ولديه العديد من "المرادات" فإنه من الممكن بل ومن اليقين أنه سوف يقع فريسة للملل.. والسبب يكمن فى ذات الشخص نفسه.. فعندما يسقط الإنسان فى دوامة الملل فذلك لأن إمكاناته ومراداته غير محددة أى أنها غير واضحة المعالم .. فهذه الإمكانات لم ترسم لنفسها خطا محددا تهدف الوصول إليه وأيضا المرادات تكون غير واضحة المعالم إنها مرادات مغيمة ومن ثم فإن خروجها من عالم الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل ما تلبث أن تتكسر وتصاب بالكساح .. الملل هنا يكون بسبب أن الذات لم تقيم علاقة حميمية بينها وبين المحيط الخارجى . أو هو فقد الوعى لكل من الذات والواقع . وفى هذا الصدد يشرح البرتو مورافيا هذه الحالة بقوله : إن الملل فى نظرى هو حقا نوع من النقص أو عدم تلاؤم أو غياب حس الواقع. وأعمد هنا إلى تشبيه فأقول : إن حس الواقع ،- حين يتملكنى الملل ، يحدث لدى ما يحدثه بالنسبة للنائم غطاء قصير أكثر مما ينبغى ، فى ليلة شتوية : فإذا سحبه على قدميه ، أصيب بالبرد فى صدره ، وإذا رفعه إلى صدره ، أصيب بالبرد فى قدميه ، فهو لا يستطيع أبدا أن ينام قرير العين . أو هذا التشبيه الآخر : إن مللى يشبه انقطاع التيار الكهربائى فى بيت : كل شئ منير واضح ، فى لحظة من اللحظات ، هنا الكراسى ، وهناك الأرائك ، وهناك الخزائن والمناضد واللوحات والبسط والطنافس والنوافذ ، والأبواب ، وفى اللحظة التالية ، لا يكون ثمة بعد إلا ظلام وفراغ.. أو هذا التشبيه الثالث : إن بالإمكان

تعريف مللى بأنه مرض للأشياء هو عبارة عن ذبول أو فقدان للحيوية مفاجئان تقريبا ، فالأمر كأنما هو رؤية زهرة تتحول فى بضع لحظات من التفتح إلى الذبول إلى التفتت.. (١٥)

وفى تلك التشبيهات التى يوردها مورافيا سوف نلحظ أن الملل إذا أصاب الإنسان فإنه يفقده حالة التناغم مع الوجود ، إنه يفقده القدرة على أن يعيش بشكل متوائم مع الوجود.. فذا الغطاء القصير يذهب النوم من العين ويجعله مؤرق طوال الليل ، هكذا الملل إذا اعترى الإنسان يجعله فى حالة غير متناغمة وغير متوائمة مع الوجود .. وأيضا تشبيهه الملل بانقطاع التيار الكهربائى ، فى حالة الضوء أو الإنارة كل شئ محدد المعالم ومن ثم يسهل على الإنسان الإدراك أما فى حالة انقطاع التيار فإن كل شيء سوف يفقد معالمه ومن ثم فمن المستحيل على المرء أن يدرك ما يحيط به إدراكا سليما.. إنه الملل إذا اعترى الإنسان يصبح الإدراك غير حقيقى وتصبح كل الأشياء حوله متغيمة وغير واضحة.. وتشبيه الثالث بالذبول والتفتت .. فالملل قادر على أن يجعل الفرد يرى الأشياء كلها فاقدة للمعنى وكل الأشياء تتبدى فى حالة موات.. إن الأشياء تفقد حياتها ومن ثم فهى آخذة فى التفتت والتلاشى هكذا هو الملل يجعل الذات تنظر إلى الأشياء فى حالة ضمور وذبول ومن ثم لا تشعر الذات سوى بالرثاء تجاهها ، إنها الفقد للعلاقة الحية والمثمرة ، إنها فقد للعلاقة الحميمية المتناغمة بالوجود..

ثانياً : "الملل" انعدام التواصل مع "الذات" مع "الأشياء" :

الوجود بأكمله بما فيه من أشياء لا أهمية له ولا قيمة طالما أننى لم أقرر بعد بوجود علاقة ما تربطنى به.. خذ مثلا القلم الذى أكتب به

الآن إنه مجرد شيء في هذا الوجود ولكنني أقرر أن لي علاقة به حيث أنني لا يمكنني أن أعبر عن الكلمات والأفكار إلا عن طريق ذلك "القلم" وتلك "الورقة" هذا الاعتراف بالعلاقة التي تربطني بهذه الأشياء يعطيها الوجود ومن ثم هو اعتراف أيضا بوجودي والعلاقة هنا ليست علاقة سلبية بل هي علاقة إيجابية ، هذه العلاقة تتحول إلى قيمة فالعلاقات الإيجابية بين الذات والأشياء علاقة قيمة .. وعند فقد تلك العلاقة تدخل الذات إلى دوامة الملل.. وفي العلاقة الإيجابية بين الذات والأشياء يصبح كل شيء حولي معقول ولديه التبرير الكافي لوجوده ومعقوليته أما عكس ذلك فتصبح الأشياء بمثابة العبث بمعنى أن تفقد الأشياء معقولية وجودها..

ويشرح مورافيا هذه الحالة.. لقد ذكرت إن الإحساس بالملل يولد في من الشعور بعبثية واقع ناقص ، أي عاجز عن إقناعي بوجوده الفعلي . فقد يتفق لي مثلا أن أنظر إلى قدح في شيء من التنبه . فما دمت أقول أن هذا القدح وعاء من البلور أو من المعدن مصنوع ليحتوي سائلا ويرفع إلى الشفتين من غير أن يندلق ، أعني مادمت قادرا على تمثل هذا القدح في اقتناع ، فيبدو لي أن لي معه علاقة ما ، تكفي لتحملني على الاعتقاد بوجوده ومن ثم على الاعتقاد بوجودي أيضاً . ولكن ليتحلل هذا القدح ويفقد كثافته بالطريقة التي أتصورها ، أو ليمثل لعيني كشيء غريب ليس لي به أية علاقة ، وبكلمة واحدة إذا بدا لي حاجة لا معقولة ، فعند ذاك ينبع الملل من هذه اللا معقولية.. [١٦] والقذرون هم أولئك الذين يسلمون بهذا المصير، ويسلمون بأن يعيشوا كما تعيش الأشياء توجد ماهياتها سابقة على وجودها وتتحكم فيه ، أولئك الذين يهربون من الحصر النفسي عن طريق خداع النفس ومن خلال كثير من المبررات التي يقدمونها لأنفسهم.

يقول روكنتان بطل مسرحية سارتر (الغثيان).. لقد أدركت أننى وضعت يدى على مفتاح الوجود ، مفتاح شعورى بالغثيان ، مفتاح حياتى الشخصية . والحق أن كل ما وصل إلى معرفتى بعد هذا يرجع إلى أننى أمام وجود عبث تماما.. (١٧)

إن الملل لابد أن يكون له اليد الطولى فى حالة فقد الذات لذاتها ، وعدم التواصل مع الذات أى أن الذات لم تعد أصيلة وغير قادرة على الإبداع والإنتاج والتعبير كل ذلك يعنى أن الذات قد (كفت عن الوجود).. وقد ركز – أميد بونصو Amedee Panceau فيلسوف التخطى– على دور الذات وعلاقتها بذاتها وبالعالم فهو يرى: إن كونك إنسانا معناه أن تتجه نحو العالم ونحو نفسك ، ونحو القيمة . والحركة الأولى هى حركة بناء العالم ، أو فرض الموضوعية ، أى العلم ، وهذا هو دور الفهم العقلى ، وهو ذلك الجانب من العقل المتجه نحو الخارج ، لكن كل معرفة موضوعية تفترض عقلا مفكرا ينشئها : فحين تفترض الموضوع تجدك تفترض الذات أيضا ، وحين تؤكد الظاهرة الخارجية تضع فيها الفكرة . أما الحركة الثانية فهى حركة بناء الـ "أنا" حركة النشأة التكوينية للنفس . وفى نظر هذا المذهب النفسى، كونك " أنا " معناه أنك روح ، وأخيرا فإن كونك "موجودا " يعنى فى آن واحد أنك تتشكك فى نفسك وتستدرك نفسك ثم تستعيد ذاتك إليك ، كما قال نابير.. أو أيضا أنك تقيم نفسك (تعطى نفسك قيمة) وتتخطى نفسك بنفسك بفضل الثقة التى يوليها الآخرون لك . وما الروحية إلا صفة الوجود القادر على التجدد والتخطى ، والآخرون شهود على القيمة وهم يشتركون جميعا فى هذا ... (١٨) ولقد كان الهدف من تحليل (بونصو) للذات هو استخلاص التعقد التدريجى للفعل الذى يسمح لكل منا أن يشهد بوجود نفسه . إنه يوضح لنا معرفة الإنسان

لنفسه ، تلك المعرفة التى يقوم فيها الوعى ببناء عالم الإدراك الحسى والعلم والفن والسلوك الأخلاقى والدين ، فى حين أنه- اعتمادا على إبداعاته هذه- يخلق لنفسه كذلك إرادة ، أى يخلق لنفسه ذاتية وشخصية..[١٩] إن ذلك الخلق الذاتى وتحديد الإرادة كل ذلك يتيح للذات الخروج من شرنقة الملل..

ويشرح إريك فروم حالة الفرد الغير قادر على إقامة التواصل مع ذاته بأنه فى حالة من الاغتراب لذلك فإنه يعانى من الملل.. فهذا الفرد فى المقام الأول "لا يعايش ذاته ككيان فردى متفرد " إنه يخفق فى معايشة هويته فى زخم خصوصيتها وتفردها ، إذ ليس لديه شعور بذاته كفرد متفرد وغير قابل للتكرار .

ومثل هذا الشخص لا يعايش ذاته كشخص مفكر وعاشق وقادر على الإحساس ، بل إنه لا يعايش ذاته .. باعتباره حامل القوى الإنسانية الخلاقة ، ويبدو إنه لا يعنى أن فى حدود طاقته أن ينتج ويخلق.. باعتباره مبدع أفعاله ، ويبدو أن ذلك يعنى أنه لا يشعر بأن أيا من أعمال تنتمى إليه ، فالشعور بالذات الذى يفتقده "ينبع من معايشتى لنفسى لتجاربى ، فكرى ، مشاعرى ، قرارى وتقديرى ".. [٢٠] إن الذات المغتربة عند فروم هى ذات واقعة فريسة للملل وليس هناك من حل لتلك المأساة سوى عودة الذات لذاتها ومعايشتها لذاتها وإذا لم يحدث ذلك التواؤم بين الإنسان وذاته فإنه يسير فى الحياة دون أن يلتقى أو أن يواجه ذاته مواجهة حقة.. وهذا ما عبر عنه مورافيا بقوله : كان المظهر الرئيسى للملل ، هو العجز عن أن أظل تجاه نفسى التى هى من جهة أخرى الشخص الوحيد فى العالم الذى لم أكن أستطيع بحال من الأحوال أن أتحلل منه .. [٢١]

ثالثا: الملل افتقاد للمعنى أو المغزى لكل شيء

وهنا نشير إلى كل المواقف التى يكون على الفرد فيها أن يختار بين عدة بدائل فى حين لا يتوافر لديه لا الثقة ولا المعرفة الحقيقية التى تساعده على الاختيار . فلا يمكنه أن يتنبأ بما قد يترتب على اختياره من أثار ، وهكذا يجد الفرد نفسه أمام اختيارات بلا معنى ، بل حياة بلا مغزى ، ومن ثم تتعدد قدرته على التنبؤ بالنتائج المستقبلية للسلوك.. هنا يقف المرء وجها لوجه أمام الملل فما معنى كل الأشياء وكل الأفعال ؟ إن الواقع يثير فى داخل الفرد نوعا من العبث واللامنطقية تحوط كل الوجود.. وهذا ما حدا بالبرتو مورافيا للقول : إن الإحساس بالملل يولد فى من الشعور بعبثية واقع ناقص، أى عاجز عن إقناعى بوجوده الفعلى...[٢٢] ويعبر كيركجارد عن هذه الحالة بقوله : أين أن ...؟ ما هو هذا الشيء الذى أسميه بالعالم ؟ وما الذى أغوانى بهذا الشيء وتركنى الآن هنا ؟ من أنا ؟ وكيف جئت إلى هذا العالم ؟ لماذا لم أستشر ؟ ولماذا لم أفضل أن اتصل اتصالا مباشرا بما فيه من عادات وتقاليد ؟ لماذا قذف بى فى قلب الضجيج كما لو أنهم قد جاءوا بى من عند تاجر من تجار الرقيق؟"

ويقول: فى بعض الأحيان أكون أكثر هدوءا، فلا أقرأ ، ولكنى أجلس منكمشا تماما أشبه بالأطلال البالية ، وأحملق فى كل شيء . ويبدو لى عندئذ كما لو كنت طفلا صغيرا يتسكع فى غرفته أو يجلس فى ركن منها يلهو بلعبته ... عندئذ أبكى بصوت مرتفع.. وكل شيء يعتصر قلبى.. [٢٣] وافتقاد المعنى أو المغزى تجاه الأشياء والوجود يمكن أن نطلق عليه الاغتراب ، إنه اغتراب تجاه الأشياء ومن ثم فقدت مبررات وجودها وهذا الفقد للمعنى والمغزى هو الذى يثير الضجر والملل فى نفس

الإنسان ، إن الوجود فى مثل تلك الحالة يصبح عبثيا.. ويوضح (سيمان) نمط العبث من خلال "التوقع المحدود حول إمكانية التنبؤ بالنتائج المستقبلة للسلوك" وهكذا فإن نوعية الاغتراب المحدد من خلال هذا النمط هى مسألة تدور حول إحساس الفرد بتفهم الوحدات التى يشارك فيها أو التى تؤثر عليه ، وبالمثل يعتبر (دين Dean) أن شخصا ما يعانى من الإحساس بالعبث وإنه بالتالى مغترب بالمعنى الماثل بيت أيدينا إذا ما كان يشعر بأنه لا يمكنه فهم الأحداث التى يعرف أن حياته وسعادته تعتمدان عليها فى ذاتها ، ويستخدم ميدلتون العبارة التالية كمؤشر لوجود هذا النمط من الاغتراب : "لقد أصبحت الأشياء معقدة للغاية فى العالم اليوم إلى حد أننى حقيقة لا أفهم ما يحدث على وجه الدقة ".. [٢٤] ويشرح مورافيا تلك الحالة من الملل في بشكل جميل ورائع حيث يقول... " لقد كان نفاذ صبر عجيب يملك على حياتى فى تلك الفترة . لم يكن ثمة شيء ما أفعله يروق لى أو يبدو لى جديرا بأن ينجز ، ومن وجهة أخرى لم يكن بوسعى أن أتصور شيئا يمكن أن يروق لى أو يمكن أن يشغلنى بشكل دائم . وكل حجة باطلة كنت أعطيها لنفسى كانت صالحة لكى أخرج من مرسمى ، لكى لا أبقى فيه : شراء سجاير لم تكن لى بها أدنى حاجة ، شرب فنجان قهوة لم تكن لى أية رغبة فيه ، ابتياع جريدة لم تكن قط لتهمنى ، زيارة معرض للرسم لم يكن يدفعنى إليه أى فضول ، وهلم جرا ... [٢٥] وهذا الملل الذى يصيبنا يجعلنا أقل تذوقا للدنيا.. يجعل طعمها على اللسان غريبا.. ويجعل ألوانها فى العين غريبة، ورنينها فى الأذن غريبا ، وملمسها في اليد غريبا أيضا.. فالملل هو الذى يجعل كل ما حولنا غريبا.. أو يجعلنا نحن غرباء فى هذا العالم.. وغرباء عنه.. فالملل يجعل العين تأنف من الرؤية ، ويجعل الأذن تعاف الاستماع ، ويجعل أيدينا فى حالة غثيان من

لمس كل ما حولنا ... [٢٦] إن الأشياء حولنا فقدت كل كثافتها وأصبحت هلامية لا طعم لا رائحة لا مغزى..

رابعا: ضبابية التفكير وتخبطاته:

يقول " البياتى" فى قصيدته " مسافر بلا حقائب من ديوانه "أباريق مهشمة" :

من لا مكان
لا وجه لا تاريخ ، من لا مكان
تحت السماء وفى عويل الريح أسمعها تناديني
تعال "...
عبر التلال
وأنا وآلاف السنين
متثائب ، ضجر، حزين
من لا مكان
تحت السماء
فى داخلى نفس تموت بلا رجاء
وأنا وآلاف السنين
متثائب ، ضجر، حزين
سأكون ، لا جدوى ، سأبقى دائما من لا مكان
لا وجه ، لا تاريخ لى، من لا مكان

ونجد هنا " اللامكان" و"اللاجدوى" و "الضجر" إنه التعبير عن الاغتراب والانفصال إنه التعبير عن حالة الغثيان التى تعتريه.. إنه الملل الكامن فى داخله وقد خرج فى كلمات متناثرة تفهم منها الضياع الذى يعيشه ..

وفى حالة الملل فإن الفرد يصبح غير قادر على التفكـــير وأنـــا اقصد هنا "التفكير المنطقى" أى التفكير المنظم ، الملل يقوم بشل التفكير أو يشل العقل إن صح هذا التعبير هذا الشلل أو هذا الوقـــف للعقـــل يـــؤدى بالإنسان أن يصبح تفكيره غير محدد ، بل إنه من الممكن أن يفكـــر فـــى أكثر من شىء فى آن واحد وهو أيضا غير قادر على تحديد أى شىء تجاه تلك الموضوعات..

يقول (دينو) فى رواية السأم لمورافيا معبرا عن تلك الحالـــة .. ليس يسيرا ، حين يسأم الإنسان ، أن يفكر تفكيرا مستمرا فى شىء مـــا. ولقد كان السأم بالنسبة لى شبيها بنوع من الضباب كان تفكيرى فيه يتيـــه باستمرار ، ولا يلمح إلا فى تقطع بعض تفاصيل الواقع، كما يحدث إذ يجد المرء نفسه فى ضباب كثيف فيلمح تارة زاوية بيت ، وتارة أخرى وجـــه ما، أو حاجة أخرى ، ولكن للحظـــة فقـــط ، ثـــم تختفـــى فـــى اللحظـــة التالية...[٣٧] وفى رواية "السمان والخريف" -لنجيب محفوظ- نجد شخصية عيسى الدباغ وهى تعبر بشكل واضح عن حالة الملل وعن ضبابية التفكير وتخبطاته...

- وراح عيسى يحاول النفاذ إلى بواطن الآدميين المتكتلين فـــى القهوة لغير ما سبب واضح وجرى فى الماضى ملايين السنين بين الدهشة والارتياع . ثم التفت نحو زجاج النافذة فرأى شحاذا واقفا وراءه ليرمقـــهم بنظرة مستعطفة وقد انقطع المطر فقال لأصحابه:

- تصوروا أن هؤلاء الآدميين انحدروا فى الأصل من السمك !

- لكن الأسماك ما زالت تزحم المحيطات بملايين الملايين...!

فقال بفتور:

- وهذا هو سر مأساتنا الحقيقى..

وطرد الشحاذ بإشارة من يده وعاد يقول:

يعزينى أحيانا أن أرى نفسى كالمسيح أحمل خطايا أمة من الخاطئين؟.. (٢٨)

هذا الحوار يكشف لنا عن تشوش التفكير ولا تحديداته ، إنها ثرثرة لا تنم إلا عن شخص ممتلئ بالقرف والضجر من كل شىء ولأى شىء .. والملل " لا يجعل التفكير هلامي وضبابى فقط ولكن يجعل تصرفات الفرد أيضا تتصف باللامعنى والعبث ويحكم الآخرين على التصرفات بأنها تصرفات إنسان خاو لا يحمل فى داخله أية معنى ولا مغزى..

وهذه الحالة هى التى يعانى منها عيس الدباغ بعد أن هجر القاهرة ورحل إلى الإسكندرية - وسار على مهل فى شارع سعد زغلول ، أحب شوارع الإسكندرية إلى نفسه وبخاصة بعد الثورة ، إنه شارعه الخاص على وجه ما ، ويحب كثيرا أن يقطعه ولو مرة كل يوم جيئة وذهابا ، ليناجى فيض الذكريات . و اقترب الوقت من نصف الليل وشاعت فى الجو برودة رقيقة منعشة وبدأ المجال كله ملفعا بالهجران . وألقى نظرة إلى ظهر التمثال المحدق فى البحر وطوح برأسه إلى الوراء على طريقة الباشا الذى حلا له قديما محاكاته . (٢٩) ومازلنا مع (سعيد الدباغ) نواجه ذلك التخبط وتلك الضبابية فى فكره وسلوكه وتصرفاته.. إن فقد الهدف والمعنى والمغزى كلها صور جلية للملل المتعملق فى داخل ذاته.. ويجلس (سعيد الدباغ) فى لحظة لتأمل ذاته..

لكل إنسان عمل وهو بلا عمل . ولكل زوج ذرية وهو بلا ذرية . ولكل . مواطن مستقر وهو منفى فى وطنه . وماذا بعد الدورات الهروبية المعادة ؟ تسكع فى الصباح ما بين قهوة وقهوة ، ومجلس البوديجا مساء المركز فى الاجترار ، وزيارات مملة فى محيط الأسرة، ماذا بعد الدورات الهروبية المعادة ؟! ويعانى ألام قاسية ، ووحشة وملا ، ويتساءل فى جزع إلام تمتد هذه الحياة الكئيبة ؟!.. [٣٠] إنه التساؤل الحائر والإجابة غائبة أو غائمة فى عقل ركن إلى الاستكانة وكف عن نشاطه الفكرى ، إنه استعذاب بشلل عقلى أختاره برضى كامل...

الهوامش

١- د. عبد الرحمن بدوى : شوبنهور، دار النهضة العربية ط٣ ١٩٦٥ ، ص ٢٧١، ٢٧٢.

٢- د. زكريا إبراهيم : السأم فى الفكر الفلسفى المعاصر (مقال) بمجلة العربى العدد ١٥٣ أغسطس ١٩٧١ ، ص ٨٦.

٣- جاستون باشلار: حدس اللحظة . ترجمة رضا عزوز ، عبدالعزيز زمزم ، بغداد (بدون تاريخ) ص ١٩.

٤- د. زكريا إبراهيم : مشكلة الإنسان ، مكتبة مصر، ص ٨٢: ٨٣.

٥- السابق : ص ٨٤.

٦- جاستون باشلار : السابق: ص ٢٠.

٧- هنرى توماس: أعلام الفلاسفة وكيف نفهمهم . ترجمة مترى أمين . دار النهضة العربية ١٩٦٤ ص ، ص ٢٩٣، ٢٩٤.

٨- فؤاد كامل : الفرد فى فلسفة شوبنهور ، الهيئة المصرية ١٩٩١، ص ٨٧.

9- Regibns: Sources of Cultural Estrangement, Mouton the Hague, Paris, 1969, P.220.

10- S. Kierkegeard : The Point of View of My Work as an Author "Trans by W. Coowrie, New York, 1962, P.206.

11- Hedegger : Bing and Time, Trans by Macquarrie, New York, 1962, P. 166.

12- Ibid., P.164.

١٣- جون ماكورى: الوجودية. ترجمة د. إمام عبد الفتاح. دار الثقافة ١٩٨٦، ص ١٧٥.

١٤- السابق: من ١٧٦.

١٥- البرتو مورافيا : رواية السأم ، منشورات دار الآداب بيروت ، ط٥ ١٩٩٤ ، ص٧

١٦- السابق: ص ٧.

١٧- مقتبس فى: جارودى : نظرات حول الإنسان ، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٨٣ ، ص ٨٢.

١٨- جان لاكروا : نظرة شاملة على الفلسفة الفرنسية المعاصرة ، ترجمة د. يحيى هريدى ، دار المعرفة ١٩٧٥، ص ٤٥.

١٩- السابق: ص ٤١.

20- Schacht (r>) Alienation, George Allen, Unurin Lted, London, 1972, P.198.

٢١- مورافيا : السأم ، ص١٧ .

٢٢- السابق : ص ٧.

٢٣- مقتبس فى : د. إمام عبد الفتاح: كيركجور رائد الوجودية ، الجزء الثانى دار الثقافة. القاهرة ١٩٨٦، ص ٣٣٩.

24- Schacht : Op. Cit., P.239.

٢٥- مورافيا: السابق ص ١٨.

٢٦- أنيس منصور: وداعا أيها الملل: ص ١١ .

٢٧- مورافيا: السابق ص ٦٣.

٢٨- نجيب محفوظ: السمان والخريف : ص ٦٥.

٢٩- السابق: ص ٨٨.

٣٥- السابق: ص ١٤٧.